واحدٍ، ناهيك عن شئون المطبخ الذي يعمل بكامل طاقته في بعض الأحيان ما يقرب من عشرين ساعة!

كان البيت أشبه بسلسلة مطاعم كبرىٰ!، حتىٰ خدمة التوصيل للمنازل كانت متوفرة لدىٰ منزل عبد الحليم عويس!.

فقط عبد الحليم عويس..

الطائي.

رحمه الله كما أحبَّني..

«الإنسان نفخة من روح الله، وبغير الروح يصبح الإنسان مادة أو عقلا مجردًا من معانيه الإنسانية والروحية والأخلاقية في هذا العالم»

مُذ رأيته لأول وهلة تسرَّب إليَّ إحساس غريب، إنه يراني بمنظار مختلف عن الآخرين، بمن فيهم أنا..

نعم، أعترفُ أنه كان يؤمِّل فيَّ مالم أؤمِّلُهُ في نفسي..

مشكلتي الحقيقية التي فطن لها الرجل أنني شخصية غير طموحة..

نعم، بالفعل.. غير طموحة.

أُقدِّم غيري علىٰ نفسي في مواضع يرىٰ البعض غير ذلك، حتىٰ عملي بالإعلام والقنوات الذي امتد سنواتٍ، قنعتُ فيه بعملي كمعد للبرامج خلف الكواليس، رافضًا كل محاولات الترقية، بل والعمل كمقدم للبرامج، اللهم إلا في العام الأخير وبضغط من الزملاء ومجلس الإدارة معًا، قبل استقالتي وترك الإعلام بقَضِّهِ وقَضِيضِهِ..

لم أرني قبل ذلك الوقت مسئولا إداريًا أشغل نفسي بحضور فلان وانصراف فلانة، وتستيف الملفات، وضبط الفواتير.. أمرٌ يضيق به صدري.

فماذا كان يريد لي مولانا؟!

يريد لي مولانا زيجة مريحة ماديًا تختصر طريقي إلىٰ المال، تكفيني عناء البحث عن شقة وسيارة، وتضمن لي دخلا ثابتًا حتىٰ أتفرَّغ لحياتي العلمية..

اقترح لي عروسًا، وثانية، وثالثة، علىٰ النحو الذي ذكرتُهُ في هذا الكتاب.

حتمًا لم يكن رأيه يروق لي في هذا الشأن.

يُفسِّر مولاي ذلك بأنني ما أزال أحمل سلوكيات الفلاحين الموروثة، ومنها الأَنَفَةُ في غير موضعها، وصلابة الرأي..

كلَّما حدثني عن عروس غنية، حدثتُه عن القوامة، فيبادرني قائلا: (فإن طِبْن لكم عن شيءٍ منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئًا)

رفضتُ كلَ محاولاته، فاتهمني بالعقوق

رحمه الله كما أحبَّني.

***

قبل مصاحبة مولانا لم تكن لي سَابِقَةُ قَدَمٍ في النشر الصحفي إلا من مقالات كنت أرسلها أثناء دراستي الجامعية إلىٰ بريد القراء في صحيفة (آفاق عربية) وبعض الصحف الأخرىٰ علىٰ استحياء.

طلب مني بعض المقالات لمجلة (الدعوة) السعودية الشهيرة، كنت أكتب المقال فيدفع لي مقابله بمجرد تسليمه، سواء نُشر أم لم يُنشر، فبعض الموضوعات لم تكن تتفق مع سياسة المجلة، ومع ذلك يشجعني علىٰ كتابتها، وبعد فترة لاحظت أنَّ كَمَّ المقالات التي كتبتها لا يتناسب مع المنشور منها، فلما سألته عن ذلك قال بأنَّ للمجلة

سياسة معينة، حيث يمكنها تأجيل المقالات حتىٰ يمر عليها الحَوْل والحَوْلان ثم تنشرها في ملفات علمية.

لم أقتنع بالإجابة، لكن تبين لي بعد تفكُّر وتدبُّر أنه يدفع لي مكافأة المقالات من جيبه الخاص تشجيعًا لي دون أن يخبرني، وإلا فلماذا لم يفعل ذلك مع الآخرين؟!

كان يطلب أن أقرأ عليه ما كتبتُ ويُقوِّمه:

لو وضعتَ كلمة كذا مكان كذا لكان أفضل..

ولو تخفَّفتَ من عبارة كذا لكان أجمل..

ولو غيرتَ عنوان المقال إلىٰ كذا لكان أوقع..

هكذا تعلمتُ قيمة اللفظة ومراعاة السياق.

يا لها من مروءة نادرة!

***

كان يوم الاثنين..

اتصل بي ليسألني إن كانت لي أعمال أدبية من شعر أو قصة أو رواية أو مسرحية أو نقد أو نحو ذلك؟

أجبته بالنفي، فلست من الشعراء ولا من القُصاص، ولا طاقة لي بالنقد، وإن كان جزءًا من دراستي وتعليمي الجامعي، وإنما أنا من الغاوين الذين يتبعونهم، وليس لي من الكتابة إلا المقالات والدراسات العلمية.

ضحك ملء شدقيه.. وسألني عن محتوىٰ بعض المقالات

فأخبرتـه، فطلـب منـي اصـطحاب (مـذكرات نـائم) و(المقامـة الشارونية)، و(أين المحتسب؟!)، وعدد من الصور الشخصية وبعض أوراقي الرسمية.

سألته: لماذا؟!

لكنه لم يُجب كعادته، واكتفىٰ بقوله: بعدين أقول لك يا أخ.

بعد المغرب كنا في شقة بمنطقة (باب اللوق) بوسط القاهرة..

كراسي.. مدعوون.. حضور من كل الفئات وإن غلب علىٰ أكثرهم الشيب..

علىٰ استحياءٍ وُضعت لافتةٌ صغيرةٌ مكتوبٌ عليها: رابطة الأدب الإسلامي.

علمت أن لقاءً أسبوعيًا يجرىٰ في مثل هذا اليوم يجتمع فيه أعضاء الرابطة لعرض إبداعاتهم في مجالات الأدب المختلفة.

هناك قابلت لأول مرة الشاعر الراحل عبد المنعم عواد، والشعراء المبدعين: وحيد الدهشان، محمد فايد، محبوبة هارون، نوال مهنَّىٰ، وعبد الرازق الغول، والشاعر والناقد النوبي الودود محي الدين صالح، والصديق الكاتب الصحفي محمد القوصي، والخطاط الكبير محمد أبوقمر الذي كتب المصحف الشريف مرتين.. وغيرهم كثير..

بدأ الأستاذ عبد المنعم عواد ببعض المقطوعات الشعرية التي تشبه إلىٰ حد كبير شعر أحمد مطر، ثم توالت القصائد..

فاجأني مولانا بقوله: تفضل يا أستاذ وليد.. اقرأ شيئًا مما كتبت..

- «ليس لدي ما أقوله أستاذي الكريم، إنما جئتُ مُستمعًا لا مُلقيًا» قلتها.. في بالغ حرج..

أصرَّ مولانا ومعه بعض الحضور..

متثاقلا.. أسِفًا.. قُمتُ.

قدمتُ أعذاري بين يدي الجالسين، فلستُ من المبدعين، ولم أبرح المقال إلا لكتابة الأبحاث العلمية، ثم قرأتُ (المقامة الشارونية)، وهي مقالة صغيرة كتبتُها علىٰ غرار المقامات المعروفة في التراث العربي تتحدث عن موقف الحكام العرب من اعتداءات الصهاينة المتكررة علىٰ الفلسطينيين..

لقد فتح لي مولانا آفاقًا جديدة من حيث لا أدري.

لم يمر قت طويل حتىٰ أعلنت الرابطة عن إقامة مؤتمر عن الأديب مصطفىٰ صادق الرافعي، فدفعني مولاي دفعًا إلىٰ المشاركة بدراسة حول أدب الرجل الذي طالما عايشته وعايشني حتىٰ صار (وحي القلم) مرجع حياتي الأول.. اقترحت موضوع (ظاهرة الفقر وكيف تناولها أدب الرافعي) ، فتشاءم مولانا من العنوان وقال: يا أخي حرام عليك، دي تالت دراسة تكتبها عن الفقر، حرام عليك! أخشىٰ أن يكون لك نصيبٌ من اسمها!

أنجزتُ من الدراسة، وأتيح لي أن أكون في الجلسة الأخيرة التي ترأَّسها مولانا، فجاورته علىٰ المنصة، ولا أدري إن كان ذلك توقيفا أم توفيقًا!

فرغتُ من عرض ورقتي، وفُتح باب النقاش، فعقب أحد الحضور

علىٰ ما طرحته، وهمس مولاي في أذني متسائلا إن كنتُ علىٰ استعدادٍ للردِ أم يتكفل هو بذلك؟ قلت: بل أردُّ، وكان التوفيق من الله تعالىٰ حليفي، وسعد بي رحمه الله سعادة بالغة.

ثم إن رابطة الأدب الإسلامي نشرت الدراسة في عددها الخاص عن الرافعي، لكنه جاء مشوهًا بدءًا من العنوان، ومرورًا بحذف عناصر وفقرات كاملة، مما أضر ببنية الدراسة.. سامحهم الله.

ويوم أن نُشر أول مقال لي بالأهرام فرح مولانا وأحسَّ أن توجيهاته قد أثمرت إلىٰ حدٍ ما، لكنه ظل يعيب عليَّ كسلي وقِصَرَ نَفَسي، وطالما ذكَّرني بأنه نشر أول كتبه «قصص إسلامية» وقت أنْ كان طالبًا بالمعهد الأزهري..

***

كنتُ دائمًا أتحجج قائلا: أنتم جيلٌ محظوظ، عشتم بعض تجربة جمال عبد الناصر مع الاشتراكية والقومية والتأميم، فأدركتم الحقيقة المُرَّة مع النكسة، وسُرعان ما سعدتم بالحرية التي منحكم السادات إياها، ولو استمر عبد الناصر أو سياسته لكان وضعكم مختلفًا، فمثلا أنت كتبتَ بحرية في مجلات (الاعتصام) و(لواء الإسلام)، فلما عزمتَ السفر وجدتَ أكثر من فرصة، وفي السعودية كنتَ تمارس عدة أعمال بالتوازي في وقت ندرت فيه المواهب، فلا تقارن جيلنا بجيلكم؛ لأننا وُلدنا وتربيّنا في حُكم سُلطوي قمعي كتم أنفاسنا وعدَّها علينا عدًا، والفرصُ فيه أندرُ من الزئبق الأحمر.

كان مولانا يظن أن الظروف واحدة، ويمكن لي أن أشق طريقي

داخل مصر وأنجز ما لم ينجزه أحد!

ومع ذلك لم تكن تجربتي مع الدكتور الثنيان– كما أسلفتُ– هي المرة الوحيدة التي رشحني فيها للعمل بالخارج، ففي العام 2011م دُعيت إلىٰ مؤتمر في كلية الدراسات الإسلامية بالدوحة، وعلم مولانا فأملىٰ علىٰ الحداد خطابًا للدكتور القرضاوي يُشيد بي إشادة بالغة، ويطلب منه توفير عمل لي هناك في قطر.

أعطاني الخطاب فتعجبت!

إنني لم أطلب منه ذلك، وليست لدي رغبة في السفر لا سيما بعد ثورة مصر الحقيقية والرغبة في التغيير.

كنت أؤمل في وطني أكثر مما ينبغي!

لم أناقشه في الأمر، ولم تكن ظروفه الصحية لتسمح بذلك وقد زادت عصبيته بسبب من المرض الذي صار أشد وطئًا من ذي قبل، واكتفيتُ بوضع الخطاب في الحقيبة تبرُّكًا، ولم أك أنتوي بأية حال أن أعطيه الشيخ القرضاوي، رغم أني كنت بصدد مقابلته لتصوير لقاء معه لصالح إحدىٰ القنوات، وحدث أني اتصلت بمدير مكتبه المثقف وليد أبو النجا لأرتب موعدًا للتصوير فكان الشيخ علىٰ سفر، ولم يكن الخطاب الأول الذي كتبه موصيًا بي، فقد كان مجاملا لمن يعرف ومن لا يعرف، فقبل ذلك بسنوات أخبرتُه أني بصدد الذهاب إلىٰ الدكتور عبد الصبور مرزوق الأمين العام للمجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية– رحمه الله– لأعطيه نسخة من كتابي (أبوعبيدة بن الجراح: الرجل والسيف) علَّهم يوافقون علىٰ نشره، فآثر أن يكتب خطابًا

يزكيني فيه بما ليس فيَّ، وهو ما رحَّب به الدكتور مرزوق.

ثم إني اتصلت به فيما بعد فأخبرني أنه قرأ نحو ثلثي الكتاب وأجازه للنشر رغم عدم إتمامه، وأنه ماضٍ في قراءته حتىٰ النهاية، لكن يد القدر كانت أسرع، فقد اشتد المرض عليه قبل أن يبلغ الكتاب أجله وينزل ضيفًا علىٰ رب كريم، كما اشتد المرض علىٰ المجلس الأعلىٰ الذي أوقف صدور سلسلة (أعلام الإسلام) بعد نحو عددين من صدورها.

***

رغم أن مولانا كان يقول دائمًا: إن الشهادات مجرد ألقاب قد لا تُعبِّر عن حقيقة صاحبها، ورغم رفضه التام أن يتعدىٰ الطالب الأجنبي الوافد إلىٰ مصر مرحلة الليسانس ويرىٰ أن وطنه أولىٰ به، وعليه أن يوجِّه ما يبذله من جهد في الماجستير والدكتوراه إلىٰ الدعوة في وطنه، فماذا سيستفيد منه وطنه بعد أن يعود إليهم وقد تخطَّىٰ سن الأربعين..

أقول رغم ذلك رحَّب بشروعي في استكمال دراستي العلمية، ويوم أن هممت بتسجيل رسالتي في تفسير الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، اتصل بأحد الناشرين يطلب منه نسختين من تفسير التحرير والتنوير، واحدة له، وأخرىٰ لي.

ثم إنه سألني عن المشرف فقلت له: إنهما مشرفان، مولانا الدكتور حسن طبل الأستاذ بكلية دار العلوم، والدكتور محمد عبد السلام بجامعة عين شمس، فطلب مني الاتصال بالدكتور طبل، ولم تكن بينهما سابق معرفة، فعرَّفه بنفسه، وأوصاه بي خيرًا، وكان الدكتور

طبل مهذبًا كعادته فرحَّب به بشدة، وكذلك فعل مع الدكتور محمد.

***

لم يكن مولانا يستنكف أن يقترن اسمه باسم تلميذ من تلاميذه، ويرىٰ أن ذلك لن ينقص من قدره شيئًا، وفي نفس الوقت يرفع من أسهم تلميذه، وهو الأمر الذي فعله مع الصديقين الدكتور يحيىٰ العباسي والدكتور عبد الوهاب القرش اللذين شاركا معه في عدة أعمال رغم حداثة سنهما آنذاك.

ظل يدفعني إلىٰ النشر دفعًا، لا سيما أن لي دراسات مُحكَّمة فازت بعدة جوائز علىٰ مستوىٰ الجمهورية والوطن العربي أيضًا، حتىٰ قمت بنشر كتاب عن أبي عبيدة بن الجراح– رضي الله عنه– بعدما مهره بمقدّمة بديعة.

وفي ليلة مشتية من ليالي مدينة نصر جلسنا نقلب بعض كتبه وأوراقه ونتحدث عن المشروعات الفكرية المقبلة، ترددتُ في طرح اقتراح يراودني منذ فترة وأستحي..

تجاسرت وحدثته في الأمر.

كان قد كتب جزءًا عن الفكر السياسي عند الإمام ابن حزم، وكتبتُ دراسة علىٰ غرارها عن «الفكر السياسي عند الإمام أبي حامد الغزالي»، وطالما فكرت في ضمهما في كتاب واحد يجمعني باسم أستاذي، فألقيت بالاقتراح كالحَجر متوقعًا الرفض بالحسنىٰ، أو الإرجاء، فكيف لمثلي أن يقرن اسمه به.

لم يرد عليَّ وواصل عمله!

لم أجد ما أقوله.. تمنيتُ لو انشقت الأرض وابتلعتني من حينها، لم أندم علىٰ شيء أشد من ندمي في هذه اللحظة..

كان عليَّ أن أعرف قدري جيدًا، فما أنا إلا تلميذ لا يرتقي إلىٰ مثل هذه المرتبة العليا!

ثم بدا له أن يتصل بشخصٍ ما

وكانت المفاجأة!

إنه الناشر الأستاذ محمد أبو عجُّور

لقد أبلغه برغبته في نشر كتاب بعنوان (الفكر السياسي بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي)

كدتُ أطير فرحًا.. كل ما أتذكره أن النوم لم يجد إلىٰ جفوني سبيلا في هذه الليلة..

في اليوم التالي اتصل بي صديقي عبد المنعم الصاوي ليخبرني أن الدكتور قد أملىٰ عليه مقدمة الكتاب ودفع به إلىٰ الناشر..

وطُبع الكتاب.

***

لم تكن تلك هي التجربة الوحيدة للتأليف المشترك مع الدكتور عويس، فقد شرعنا في مشروع علمي كبير مع المفكر الدكتور باسم خفاجي يستوعب مشاريع النهضة الفكرية في العصر الحديثة منذ محمد عبده والكواكبي وانتهاء بمالك بن نبي والشيخ محمد الغزالي.

كنتُ والصديق الدكتور أحمد محمود نقوم علىٰ مراجعة الكتاب،

ففضلا عن استكتابنا في أجزاء كثيرة من الموضوع عُهد إلينا بمتابعة أعمال الآخرين وإعادة صياغتها وتقويم ما قد يكون من عوجها، وكان ضمن المستكتبين الصديق الشاعر وحيد الدهشان والدكتور ممدوح رمضان، والصديق السنوسي محمد، والدكتور عبد الرحمن هاشم، غير أنَّ المشروع توقف بسبب من اختلاف وجهات النظر بين عويس وخفاجي.

ثم بدا لمولانا أن يصدر كتابا تحت عنوان (المجرمون مائة) فجعلنا نحصي المجرمين علىٰ مدار التاريخ الإنساني كلِّه، بدءًا من قابيل وحتىٰ حسني مبارك، وكان الدكتور أحمد محمود حاضرًا وكذا الحداد، فوصلنا إلىٰ قائمة بلغت تسعة وتسعين، وحِرنا في الشخصية المائة..

طال الانتظار بالحداد الذي تأخر علىٰ زوجته كثيرًا، فما كان منه إلا أن قال: لو حابين تحطوني أنا الشخصية رقم 100 ما عنديش مانع بس أمشي!

ضحك مولانا حتىٰ سعل، وضحكنا جميعًا..

تم توزيع الشخصيات، شخصيات يكتبها مولانا، وأخرىٰ يكتبها الدكتور أحمد، والحداد، والسنوسي محمد، وكاتب هذه السطور..

وبدأ المشروع، وتعجَّل مولانا، فأسند الكتابة إلىٰ أشخاص دون المستوىٰ اللائق بالكتاب، وعمد بعضهم- سامحهم الله- إلىٰ الإنترنت فجمعوا المادة ولم يتصرفوا فيها إلا قليلا، فجاءت كتاباتهم سمجة ممجوجة!

توقفتُ والصديق أحمد محمود عن الكتابة بعد أن لمسنا ذلك

بأنفسنا، لكن مولانا أصر علىٰ المُضي في طريقه، فقد كان علىٰ عجلة من أمره، وذلك دأبه في أعوامه الأخيرة التي تمكَّن فيها المرض من جسده.

كان أحوج ما يكون إلىٰ إثبات ذاته ومقاومة مرضه بإصدار كتاب جديد..

مع إصراره لم نجد بُدًا من الاعتذار سويًا، بعد أن كتب كلٌّ منا بعض مادته وقوّمنا البعض الآخر من إسهامات الآخرين، وطلبنا منه ألا يثبت اسمنا علىٰ غلاف الكتاب، بعدما حذرناه من تدني مستوىٰ الكتابة، لكنه أصرَّ إصرارًا عجيبًا.. فعذرناه لظروفه الصحية.

صدر الكتاب وقد خلا الغلاف من اسمينا، لكنه لم ينس أن يشكرنا في المقدمة علىٰ جهدنا في إنجاز الكتاب.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر، فقد كان– رحمه الله– معنيًا بالقراءة والكتابة حتىٰ الساعات الأخيرة من حياته، ولم تكن الغيبوبة الكبدية لتُغيِّبه كليًا، حتىٰ إن البعض ليتعامل معه دون أن يدري أنه في غيبوبة.

قريب من ذلك أنه وجَّه البعض إلىٰ جمع مادة علمية لكتاب (دعاة لكن أدباء) يتحدث فيها عن الرافعي وعلي طنطاوي وباكثير وغيرهم من رموز الأدب الإسلامي، وبالفعل تم تجهيز المادة ووُضعت في ملف.

ثم وقَع علىٰ هذا الملف في ليلة فاتصل بأحد الناشرين يستدعيه علىٰ الفور، وكان بحضرته أحد التلاميذ، فأملىٰ عليه مقدمة للكتاب، وما إن حضر الناشر حتىٰ دفع إليه بالملف ومعه المقدمة التي كتبها

علىٰ عجل..

ونُشر الكتاب، وكانت كارثة!

لقد ظن مولانا أن الكتاب قد جرىٰ فيه القلم وأنجزه بينما هو في الحقيقة بعض أوراق مرجعية متناثرة من هنا وهناك..

ولفتنا نظر الناشر لهذا الأمر فأوقف توزيعه، لكني علمت بعد ذلك أنه باعه تجار الكتب بسور الأزبكية، فحزنت لذلك أشد الحزن، ونفس الأمر حدث مع كتاب (ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة).

والله في خلقه شؤون.